نموذج للقراءة النقدية للومضة القصصية: قراءة في ومضة "دليل" لعصام الشريف

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأحاول في هذه القراءة البطيئة أن أتناول ومضة "دليل" لعصام الشريف من كافة الجوانب الممكنة بحيث تكون نموذجا في تحليل الومضات وقراءتها نقديا، وإذا ما تراكم لدينا عدد كبير من مثل هذه القراءات يمكننا أن نؤسس نقديا لفن الومضة ككل. وسأتناول هذه الومضة من عدة زوايا أعتقد أنها لابد من مناقشتها بالتفصيل في كل الومضات حتى نتوصل إلى جماليات فن الومضة بوجه عام: تأويل الومضة تأويلا يساعدنا فيما بعد في النظر إلى عناصر الومضة على ضوئه؛ المدى الزمني للومضة وأقصد به مدى اتساع أو ضيق الحدث زمنيا وهل يمثل لحظة واحدة أم أنه ممتد في الزمان؛ مكان الحدث؛ أسلوب السرد؛ بداية النص؛ نهاية النص؛ شخصيات الومضة؛ التناص (إن وُجِد). وها هو نص الومضة:

دليلٌ

بينَ حائطِ الصّدِّ وأَقْدَامِي انْكَسرَ ظِلي، يَمّمْتُ وجْهِي شَطرَكِ.

ومضة رمزية قد يصعب فهمها لأول وهلة، وسأحاول هنا أن أستوعب عناصرها. تبدأ الومضة بتحديد نوع ما من أنواع المكان: هناك حائط صد وهناك أقدام الراوي وما بينهما ينكسر ظل الراوي. بالرغم من عدم تحديد ملامح حائط الصد، يمكننا أن نقرأه على ضوء الأقدام أولا بوصفه يمنعها من أن تكمل سيرها نحو الهدف الذي يسعى الراوي للوصول إليه. ويمكننا أن نقرأه أيضا على ضوء المخاطبَةِ التي يستهدف الراوي الوصول إليها في نهاية الومضة. إذن حائط الصد يمنع الراوي من أن يحقق هدفه ومن الوصول إلى المخاطبة التي قد تكون الوطن أو المحبوبة أو أي قيمة إنسانية مفضلة لديه أو ذاته أو... وفكرة انكسار الظل في حد ذاتها توحي بأن عائقا ما أو قوة ما أدت إلى انكساره بالرغم من أن الفعل "انكسر" ليس مبنيا للمجهول والظل فاعل هنا، ولكنها فاعلية مسلوبة على أي حال، فهو مفعول به بالرغم من وجوده في الومضة كفاعل، إذ أنه هو الذي يقع عليه الانكسار. والأقدام ذاتها ترمز للخطوات التي ترمز بدورها لمسيرة الإنسان على الأرض أو رحلته الحياتية، وبالتالي انكسار الظل يمثل عثرة في هذه الرحلة أو مرحلة تخبط أو اغتراب للراوي عن ذاته. وهنا يمكننا النظر إلى حائط الصد على أنه صد للراوي عن الخطأ أو عن ارتكاب شيء قد يفتك به هو شخصيا ويقضي على ذاتيته. ومن هنا يمكننا أن نؤوِّل نهاية الومضة على أن الراوي يتجه نحو ذاته أو نحو ما يحققها ويجعلها ذاتا فاعلة في الزمان والمكان.

ونعود مرة أخرى إلى حائط الصد ويمكننا أن ننظر إليه في ضوء كل هذا على أنه تنبيه للذات أو صحوة ضمير أو يقظة تلفته إلى ما فاته أو إلى ضرورة أن تغير قدماه مسارهما. وهنا يأتي العنوان بوصفه زاوية تلقي الضوء على تأويل من تأويلات ذلك النص المكتمل في حد ذاته. الدليل مرشد وهادٍ، وقد يشير هنا إلى حائط الصد أو انكسار الظل أو المخاطبَةِ وكلها إشارات جائزة نصيًّا. فلو أشار إلى حائط الصد أو انكسار الظل، يمكننا أن ننظر إليه باعتباره إشارة تنبّه الراوي إلى ضرورة مراجعة خطواته. ولو أشار إلى المخاطبة، تكون هي الدليل الذي يُخرج الراوي من عثرته ويصحح مساره.

تشتمل الومضة على ثلاثة ضمائر ملكية تعود على الراوي المتكلم وضمير ملكية واحد يعود على المخاطبة، الأمر الذي يوحي بطغيان حضور الذات على الومضة، ولكن إنهاء الومضة بضمير المخاطب في "شطرك" يوحي أيضا بأن المستقبل أو الحدث المفتوح هنا سيكون لهذه المخاطبة دورٌ أكبر فيه وفي تصحيح مسار الذات. وتشتمل الومضة على فعلين: الفعل انكسر الذي أشرنا من قبل إلى أنه يحمل فاعلية ظاهرية ويدل حقيقة على كون الذات مستقبلة للانكسار ومفعولا بها ويأتي هذا الفعل أولا. أما الفعل الثاني فهو "يممتُ" الذي يكون فيه الراوي فاعلا حقيقيا وإيجابيا يتخذ خطوات ملموسة نحو الوصول إلى مبتغاه أو الاقتران

والالتحام بالمخاطبة هنا بغية تلافي ما أدى إلى انكسار ظله واغترابه عن نفسه.

بالنسبة للمدى الزمني في هذه الومضة، تركز الومضة على لحظة زمنية واحدة تتمثل في انكسار ظل الراوي وما يقوم به من فعل لكي يصحح المسار الذي أدى إلى انكسار هذا الظل. أولا ينكسر الظل، ثم يفكر الراوي سريعا في الأسباب التي أدت إلى انكسار ظله، ويقرر على الفور أن يتوجه نحو المخاطبة كي يتجنب انكسار ظله مرة أخرى.

بالنسبة لأسلوب السرد، الومضة مروية بضمير المتكلم المفرد. واستعمال هذا الضمير في السرد يعطي للموقف خصوصية التجسيد وتحديد دلالة النص بالرغم من انفتاح هذه الدلالة، فالنص هنا نص مفتوح لا يتم غلقه بدلالة حاسمة، ولكن الموقف الشخصي لراوٍ يكون حاضرا بذاته من خلال ضمير المتكلم يُدخل النص في نطاق التخصيص بعيدا عن التعميم وما يشتمل عليه هذا التعميم من تعليق، فنحن هنا أمام موقف محدد لشخصية محددة تسلط الضوء على حدث وحيد. واستعمال هذا الأسلوب في السرد يحمّل العبارات بذاتية فنية ويثري التعبيرات المستعملة لنقل الحدث، وأقصد بالذاتية الفنية أن انكسار الظل وحائط الصد والأقدام والوجه وكل ما في الومضة يكتسب قيمة مضافة بحضور الراوي الذي يسرد حدثا شخصيا ويفتح الومضة على الرمز والتأويل دون أن يسقط في هوة التعميم. فلو كانت الومضة بضمير الغائب مثلا، سننظر إلى انكسار

الظل نظرة حرفية تستحضر الشمس التي وراء الشخصية وينكسر هذا الظل بالفعل على حائط الصد الذي سيكون حرفيا أيضا، وهكذا.

بالنسبة لمكان الحدث، يوجد مكانان هنا: مكان رئيسي وهو الذي يدور فيه الحدث عند حائط الصد ومكان محتمل في المستقبل وهو الاتجاه الذي سيقود الراوي للوصول إلى وجهته التي رأى في الاتجاه نحوها حلا لمعالجة انكسار الظل ومنع تكرار ذلك الانكسار. وبداية الومضة بداية ظرفية، وكذلك نهايتها ظرفية أيضا. فتبدأ بظرف مكان وتنتهي بظرف مكان. ظرف المكان الذي ببداية الومضة يدل على الانحصار بين شيئين أو موضعين وهما الأقدام وحائط الصد هنا، وهما موضعان أحدهما يدل على الحركة – الأقدام – ولكنها حركة متوقفة أو موقوفة مؤقتا وثانيهما يدل على السكون والانسداد، الأمر الذي قد يوحي بأن الراوي محصور أو مسجون بين هذين الموضعين. أما بالنسبة للمكان الذي بنهاية الومضة، فهو مكان اتجاهي – إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير – بمعنى أنه مكان يدل على اتجاه مفتوح ويمثل خروجا للذات من حالة الانسداد أو التوقف التي ببداية الومضة وحلا للمأزق الموجودة فيه.

وبالنسبة لبداية الومضة، هي بداية ظرفية، والبداية الظرفية قد تدل على المكان أو الزمان أو كليهما معا. وفي ومضة "دليل" هي بداية ظرفية مكانية تقدِّم لنا المكان الذي يدور فيه الحدث وتجسد لنا حالة التوقف والتعثر والانسداد التي وصل إليها الراوي.

وبالنسبة لنهاية الومضة، هي نهاية ظرفية مكانية أيضا ولكنها منفتحة على آفاق جديدة ينطلق فيها الراوي ليتخلص من المأزق الذي أدى به إلى انكسار ظله، ويوحي الظرف بالامتداد الذي سيتخذه الحدث فيما بعد، وهي نهاية تفتح آفاق التأويل وآفاق سير الحدث أيضا.

بالنسبة لشخصيات الومضة، هناك شخصيتان فقط، شخصية الراوي الذي يحضر في المشهد من بدايته النصية لنهايته النصية، ومن الأرجح أنه سيواصل حضوره في الامتداد الذي توحي به النهاية النصية، وشخصية المخاطبة هنا التي تحضر في ضمير المخاطب في "شَطْرَكِ" ومن الأرجح أيضا أن هذه الشخصية سيكون لها المزيد من الحضور في حياة الراوي فيما بعد مرحلة النهاية النصية.

وعبارة "يممتُ وجهي شطركِ" في حد ذاتها تفتح الباب على تناص الومضة مع النص القرآني، الأمر الذي يوحي بأن المخاطبة هنا تحتل مكانة تقارب التقديس في حياة الراوي – كالوطن المخاطب بصيغة التأنيث هنا – وكان انكسار ظل الراوي بمثابة ابتعاد عن وجهة الوطن أو الذات مثلا وهو انكسار نبَّهه إلى ضرورة تصحيح المسار.

والعنوان "دليل" عنوان مستقل عن نص الومضة بنائيا، فنصها مكتمل في حد ذاته بعيدا عن هذا العنوان. وهو عنوان قد يدل على موضوع الومضة بحيث نفسّره مثلا على أنه يشير إلى الطاقة الروحية والنفسية والفكرية التي تقدمها المخاطبة للراوي في النص. وقد يدل على

المكان الموجودة فيه المخاطبة أو على "شطرك" والاتجاه الذي يسير على الطريق الذي يوصل الراوي إلى هذه المخاطبة.

obeikandl.com